الخــوف والقلــق فــي الكتابـات الصوفيــة

أ.د إسماعيل خلباص الزاملي الباحثة هدى حميد نايف
جامعة واسط ــ كلية التربية للعلوم الإنسانية

الملخـص

إن الشعور بالخوف والقلق بصورة عامة من الاسباب التي تؤثر على الانسان وتؤدي الى الاستقامة في العبادة والابتعاد عن كل ما يؤدي الى الهلاك، كذلك الحال بالنسبة للصوفية فقد ادرك الصوفية أن الله تعالى يعلم الغيب ولا يخفى عليه شيء، لذلك أن أي فعل للصوفي ولغيره مكشوف أمامه مما يجعل المريد خائفاً وجلاً لأدنى زلة قدم.

فكان الشعور بالخوف والقلق وسيلة يلجأ بها الصوفي الى الله تعالى ويتقرب منه، لأن اللجوء له والتقرب منه راحة وأمان، وايضاً كان حافزاً مهماً ومؤثراً في كتابة النصوص، حيث أن الصوفي عبّر في نصوصه عما يعانيه في اعماق نفسه من مشاعر واحاسيس، فكانت هناك صلة وثيقة بين الاحساس بالخوف والقلق وبين ما يصدره من نتاج ابداعي.

وأخيراً يمكن القول: أن تباريح الحياة المحيطة بالصوفي، والظروف التي يعاني منها اهاجت لواعجه، فانعكس ذلك على النصوص الصوفية محطّ الاهتمام والبحث فقد كان معبّراً عما يعتمل نفوسهم من مشاعر خوف، قلق، ألم، وحزن...الخ، كونهم يختلفون عن الآخرين لأن حياتهم مكرسة لعبادة الله تعالى والتقرب اليه، كل ذلك بأسلوب فني جميل ومؤثر.

Fear And Woory In Soffe Writings

Prof. Dr. Ismail Khalbas Al-Zamili : Huda Hameed Naif

University Of Wasit /College Of Education

ABSTRACT

Feeling fear and worry in general is one of the causes that affected human and lead them to be straight in their worship and to be away from anything lead to bad habits . The same thing for the Soffes , they realized that mighty Allah knows what beneath and nothing hide .So any action for a soffe or anyone else is revealed in front of Allah . As a result human always feels fear . not to do bad behavior

Fear and worry is a mean the Soffe uses to be close to Allah , because being close to Allah id safe and comfortable .Also it was a very important motive in writing texts , where the Soffe expresses of what he feels in his deep , so there was a relationship between feelings and fear and worry with what they . produce of a creative production

Finally we can say that the life that the Soffe lives and circumstances they suffer from , made them write texts full with fear and worry and sadness ….etc . Being different from the others because their life is dedicated to worship mighty Allah and how to be close to Allah all that in a nice effective . style

المقدمـــة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وبعد...

يتصدى البحث لدراسة مشاعر **الخوف والقلق** في النص النثري الصوفي في محاولة لإكتشاف حياة الصوفي وشخصيته وما يشعر به من خوف وقلق وحزن وألم، اعتماداً على كتابات واقوال الصوفية انفسهم التي تركها ابناء الطريقة ومريديها.

وتأتي اهمية هذا البحث انطلاقاً من كون التجربة الصوفية فيها ما يستحقّ من المتابعة والتحليل والدراسة، فقد استعرضتُ في البحث أقوال الصوفية في الخوف والقلق كذلك النصوص النثرية التي تحوي على الاحساس بالخوف والقلق مع الوقوف عليها وتحليلها، حيث كان هناك تداخلاً بين مفهوميّ الخوف والقلق، فقد كان الخوف متمثلاً في الامور المعلومة التي يذكرها الصوفي وتثير فيه احساس الخوف وسرعان ما يزداد هذا الشعور الى أن يصبح قلقاً ورعباً عند الحاحهِ في بيان مشاعر الخوف من امر معين، فقد كان القلق متمثلاً في الامور المجهولة التي لا يعرف الصوفي كيفية الخلاص منها وقد استندتُ في بيان ذلك الى ما هو مُتيسر من نصوص صوفية نثرية ضمتها مصادر الصوفية من مصنفات ورسائل ادبية، فكان ذكر هذه النصوص مستنداً الى ما هو موجود من النصوص دون محاولة تكلّف الاشياء.

وأخيراً اتمنى أن ينال هذا البحث الرضا والقبول للباحثين والمهتمين في الادب الصوفي ومن الله التوفيق.

الخوف والقلق في الكتابات الصوفية:

إن هناك العديد من الامور التي تؤثر في الصوفية وطريقتهم في العبادة، ولعل الشعور بالخوف والقلق من الأسباب المهمة التي تؤدي إلى الاستقامة في العبادة والابتعاد عن كل ما يؤدي إلى الهلاك.

ونظراً لطبيعة الصوفي ونشأته الدينية فإن مصدر خوفه وقلقه الأول هو الله سبحانه وتعالى، وإن خوفه وقلقه لا يتوقف عند حدّ معين بل إنه شعور مرافق لكل عمل أو فعل يقوم به، فهو يخاف الباري عز وجلّ ويقلق من المستقبل المجهول وما سيحل به في ذلك المستقبل من حساب وعقاب(١).

فعندما يخاف العبد من الخالق ويقلق مما سيحل به فإن ذلك الشعور كفيل بأن يجعله يسير في الطريق المستقيم، فبالخوف تتأدب الجوارح وتحترق الشهوات ويحصل في القلب الذبول والخشوع والمسكنة، كما إن الشعور بالخوف والقلق يجعل المرء يتفرغ للعبادة والمراقبة والمحاسبة والمجاهدة كما يجعل المعاصي المحبوبة مكروهة منبوذة فيصبح ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه[٢]. يقول الغزالي: "**والخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله ومعرفة صفاته ... وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمفارقة المعاصي وتارة يكون بهما جميعاً**"[٣].

ومعنى ذلك أن العبد إذا عرف الله وعرف صفاته خافه ودخل الرعب والرهبة في قلبه، كذلك الحال عند ارتكابه المعاصي حيث إن كثرة المعاصي تدخل الرهبة والخوف في القلب.

وكلما زادت معرفة العبد بالله زادت رهبته وخشيته منه يقول الرازي: "**اعلم الناس بالله اخوفهم له**"[٤]. ومن هنا يصبح الخوف من الله على قدر المعرفة به، وإن الشعور بالخوف يزداد ويتفاقم بالتقرب من الله ومعرفته بعيوب نفسه قال تعالى: "**وخَافون إنّ كُنْتم مُؤمِنين**"[٥]. فالخائفون هم الذين أمرهم الله تعالى بالخوف منه امتثالاً لأوامره.

يقول ذو النون المصري: "**إن المؤمن إذا آمن بالله واستحكم ايمانه خاف الله، فإذا خاف الله تولد من الخوف هيبة، فإذا سكن درجة الهيبة دامت طاعته لربه، فإذا اطاع تولدت من الطاعة الرجاء، فإذا سكن درجة الرجاء تولدت من الرجاء المحبة**"[٦]. فعندما يستحكم إيمان العبد يخاف الله ويتولد في قلبه هيبة وطاعة له، فإذا أطاع الله تولد في قلبه رجاؤه ومحبته والمؤمن من يرجو الله ويخافه آملاً أن يشمله تعالى في رحمته.

روي ان لقمان قال لابنه: "**خِف الله خوفاً لا تأمن فيه مكره، وارجه رجاءً اشدّ من خوفك، قال: وكيف أستطيع ذلك وإنما لي قلبٌ واحد؟ قال: أما علمت أن المؤمن كذي قلبين يخاف بأحدهما ويرجو بالآخر؟..**"[٧]. ومعنى ذلك أن الخوف والرجاء لا يخلو منهما قلب مؤمن فصار حينئذ كذي قلبين يخاف بأحدهما ويرجوه بالآخر.

وإن العبد الذي يريد الوصول إلى الله تعالى والفوز برضاه لا بد له أن يجمع في قلبه بين الخوف والرجاء وغيره مما يوصل إليه، كما ينبغي أن يطغى عليه الخوف لأن ذلك يدفعه بالسير في الطريق المستقيم.

فإن الخوف إنما هو "**همّ وقلق لما هو آت**"[٨]. وهو الرادع الذي يردعه من الانهماك في الملذات وهو همّ وقلق لما سيحلّ في المستقبل، فعادة ما يقلق العبد من المجهول الذي لم يعرف عواقبه وقلق الصوفي قلق لما هو آت، القلق الذي يجعله يعمل ليؤمن مصيره عند لقاء ربه وهو الذي يملأ قلبه بالخشية والرهبة والمحبة للباري عز وجلّ.

حيث إن من أحبّ الله تعالى جنَبَ نفسه من الهوى وألزمها مشاق العمل والمواظبة على طاعة الله والتقرب إليه، والمريد الصوفي مكابد لنفسه وشيطانه متعبّد لربه تاركاً كل ما يبغضه، مطيعاً لأوامره، فعندما يدرك الإنسان أن هناك حساباً وعقاباً وجنة وناراً، ويدرك أن هذه الحياة ما هي الا فترة زمنية

تأتي بعدها مرحلة البقاء والخلود في الآخرة ولا يتم هذا الخلود إلا بالالتزام بأوامر الله واتباع رسوله(صلى الله عليه وعلى آله وسلم) حينئذ يمتلئ قلبه بذكر الله ومحبته وخوف هيبته وعظمته[٩].

يقول ذو النون: "**من خاف الله ذاب قلبه واشتدّ حبه وصيح له لبه**"[١٠]. فمحبته تؤنسهم وهيبته تخيفهم فهم في مقام الخوف والمحبة معتدلون وفي مشاهدة المحبوب مستقيمون[١١]. وإن الصوفي يترجم محبته للباري عز وجلّ بالأفعال التي يقوم بها من طاعة وتعظيم وإيثار له على كل ما سواه والسعي إلى نيل رضاه والخوف منه والصبر على ما يمنعه والترحيب بما يمنحه وغيرها من الأفعال والأعمال التي تدل على إجلال الباري وتعظيمه[١٢].

فإن من خاف الله وعلم بتقصيره في حقه انقبض قلبه وبقي مشغولاً به راجياً رحمته، فيحصل في قلبه الرهبة منه والهيبة له فالخوف يؤدي الى الرجاء والهيبة تؤدي الى الأنس والقبض يؤدي الى البسط، وإذا خاف الإنسان من شيء ما أخذ يفكر ويشغل نفسه وقلبه به، والصوفي بتفكيره في الباري عز وجلّ وذكره له وانشغاله به بصيغة دائمة إنما هو قد آنس به لأنه يشعر انه تعالى معه دائماً أينما ولّى وجهه[١٣].

يقول السري السقطي: "**يبلغ العبد إلى حدّ لو ضرب نفسه بالسيف لم ينظر**"[١٤] فإن كل ما يهمه هو مرضاة ربّه حيث إن الصوفي يخشى الله في كل وقت ويخافه ولا يقدم على عمل شيء يبغضه، لأنه إنما يخاف ويقلق من أي فعل لا يوافقه او يثير غضبه.

يقول المحاسبي: "**فاحذر الله عز وجل وخفه واستح منه وأجلّه، ولا تستخفّ بنظره، ولا تتهاون باطلاعه، وأجِلّ مقامه عليك وعلمه بك، وافرقه واخشه قبل أن يأخذك بغتة، وليرَ أثر مصيبة مخالفتك له ليعلم ما قد بلغ إليك خلافه، فإن علم ذلك منك صفح عنك وعفا عنك، فلا تتعرض لله عز وجلّ فإنه لا طاقة لك بغضبه، ولا قوة لعذابه، ولا صبر لك بعقابه، ولا صبر عندك عن جواره، فتدارك نفسك قبل لقائه، فكأنك بالموت قد نزل بك بغتة**"[١٥].

حيث يحذر المحاسبي من غضب الباري عز وجلّ، فإنه لا طاقة للعبد في غضبه لقوة عذابه وعقابه فاحذر أيُّها العبد غضبه وخفهُ واستح منه ولا تتهاون باطلاعه واخشه قبل أن يأخذك بغتة، فالنص عبارة عن وصيّة وتحذير للالتزام بطريق الحق وعدم التهاون في طاعة الباري وواجباته، حيث يجعل القارئ يشعر بالرهبة والخوف ويتفاقم ذلك الشعور ليتحول إلى قلق نتيجة رسم صورة مخيفة ومرعبة للعبد عند قوله: (فتدارك نفسك قبل لقائه فكأنك بالموت قد نزل بك) فالموت محيط بالعبد من جميع الجهات ولا بدّ له أن يتحضر ويصلح نفسه قبل فوات الأوان.

وقد ذكر أبو طالب المكي ان للخوف سبع مفائض يفيض إليها من القلب فيتلف صاحبه، فقد يفيض الخوف من القلب إلى المرارة وهؤلاء الذين يموتون من الضعف، والوجد وهم ضعفاء العمّال، وقد يفيض من القلب إلى الدماغ فيتيه العبد ويحرق العقل ويسقط المقام، وقد يسكن الخوف الكبد فيورث الحزن الدائم ويحدث الفكر والسهر ويذهب النوم وهو خوف العاملين، وقد يفيض من الفرائض كما قد يبدو الخوف من القلب فيذهله ويمحي سلطانه، وقد يفيض الخوف من القلب إلى النفس فيطفئ شغل الهوى ويُحرق الشهوات وهذا من أحمد المخاوف واعلاها(١٦).

ومن أهم الصفات لمريدي التصوف هو التفرغ التام للعبادة، يقول أبو سليمان الداراني: "**كل ما شغل عن الله فهو مشؤم عليك**"(١٧). فمن دخل هذا الطريق افتقدته الدنيا وجذبته الآخرة يعمل زاهداً متجرداً عن شهواته وملذاته حتى يصبح لا يملك شيئاً ولا يملكه شيء(١٨).

كما إن من طبيعة الصوفي أنه منعزل عن الخلق منفردٌ عنهم خوفاً من ان يشغله هؤلاء عن عبادة الله تعالى، وقلقاً من أن يفسدوا ما يحصل له من العبادة بسبب ما يبدر منهم من رياء وتزيين، لذا فانه فالصوفي لا يكثر مخالطة الخلق والحديث معهم(١٩). يقول الغزالي: "**فحسبك منهم أنك لو خالطتهم ووافقتهم في أهوائهم أثمت وأفسدت أمر آخرتك، وإن خالفتهم تعبت بأذياتهم وجفواتهم، وكدرت عليك أمر دنياك، ثم لا تأمن أن يلجأوك إلى معاداتهم ومناوأتهم فتقع في شرهم ولأنهم إن مدحوك وعظموك أخاف عليك الفتنة والعجب، وإن ذموك وحقروك أخاف عليك الحزن تارة والغضب**

لغير الله تعالى اخرى وكلا الامرين آفة مهلكة"[٢٠]. فالصوفي لا يأمن لهؤلاء الخلق ويقلق من مخالطتهم، لأن في مخالطتهم حصول الإثم وخسران الآخرة كما ذكر الغزالي.

وهناك الكثير من الأقوال التي عبّر فيها الصوفية عما يثير خوفهم وقلقهم، يقول أنس بن مالك: "**الخوف متعلقه في المستقبل لأنه إنما يخاف أن يحلّ به مكروه او يفوته محبوب، ولا يكون هذا إلا لشيء يحصل في المستقبل**"[٢١]. فالخوف حركة القلب من جلال وعظمة الربّ، فمتى ما استشعر القلب نظر اليه الباري في حالته التي هو فيها وإن كانت على أفضل حال اقشعّر جلده واضطرب قلبه ووجلّ قال تعالى: "الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم"[٢٢].

ولا شك أن حياة الصوفي وطبيعته تثير له هذا الشعور، فالشعور بالخوف محيط به، كما ان مواقف حياته الضاغطة ومعاناته ومشاقه تثير لديه شعور القلق، فالذي يقلق الصوفي تفكيره في المصير والمستقبل المجهول.

وأعلى درجات الخوف أن يكون القلب متعلقاً بخوف الخاتمة، فمن لم يستعمل قلبه في بدايته ويجعل الخوف حشو إرادته لم ينج في خاتمته[٢٣]. وقد جاء في الخبر أنه: "**إذا دخل العبد في قبره لم يبق شيء كان يخافه دون الله عز وجلّ إلا مُثِّل له يفزعه ويرعبه إلى يوم القيامة**"[٢٤]. فعند دخول العبد إلى القبر يعرض عليه كل ما كان يخافه دون ربّه يفزعه ويدخل في قلبه الرعب الى يوم القيامة.

كما ذكر الغزالي حكاية عن سفيان يقول: "**مرض سفيان فعرض دليله على الطبيب، فقال: هذا رجل قطع الخوف كبده ثم جاء وحبس عرقه ثم قال: ما علمت أن في الحنيفية مثله**"[٢٥].

كما ذكر عن سهيل بن عبد الله: "**كان لا يأكل الطعام الا كل خمسة عشر يوماً فإذا دخل شهر رمضان كان لا يأكل حتى يرى الهلال وكان يفطر كل ليلة على الماء القراح**"[٢٦]. فقد كان الجوع من صفات هؤلاء القوم وهو أحد اركان المجاهدة لديهم فقد اعتادوا على الجوع والامساك عن الاكل، حيث حبس الصوفية انفسهم عن السعي في هواها بالصبر والتحمل الذي هو أشقّ شيء على النفس

واصعبه، ففيه من الألم والكظم والذل، ومنه التواضع وحسن الخلق، ولأجل ذلك اشترط الله على المتقين الصبر وتحمل الشدائد(٢٧). قال تعالى: "**والصَابِرِينَ فِي البَأساءِ والضّراءِ وَحِينَ البَأس أولَئِك الذِينَ صَدَقُوا وأولَئِكَ هم الُمَتقُون**"(٢٨).

فالصبر على مجاهدة النفس وترويضها لطاعة مولاها أمر مرافق للصوفية، لأن النفس عند الصوفية هي العدو الأول وهي خصمهم الذين يجالدونه من جهة ويهادنونه من جهة أخرى، إنهم يعدّونها منبت السوء الذي يصدر منه كل هلاك أو انحطاطّ، وهي في نفس الوقت منبت الصلاح والخير إذا لم تنغمس في الشهوات والملذات(٢٩). لذا فإن طريق المجاهدة طريق شاقّ وطويل وإن محاسبة النفس في المفهوم الصوفي هي وسيلة لحفظ الذات والحال والمقام من التردي والإنهماك في المذمومات.

يقول المحاسبي: "**إنما المؤمن قوّام على نفسه يحاسب نفسه لله عز وجلّ وانما خفّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وانما شقّ الحساب على قوم اخذوا هذا الأمر من غير حساب**"(٣٠). ومعنى ذلك أن في محاسبة النفس الخشية والتأني لمعرفة الخطأ والسير في الطريق السليم، فإنما يخفف الله تعالى الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه وسيطر على جوارحه والله يعلم ما في الصدور، قال تعالى: "**يَعْلَم مَا فِي أنفسَكم فَاحذَرُوه**"(٣١).

فمعنى المحاسبة التثبت في جميع الأحوال قبل الإقبال على الفعل والترك حتى يتبين للعبد ما يترك وما يفعل فإن تبين له في الأمر ما كره الله جانبه وابتعد عن فعله وكفّ جوارحه عنه(٣٢).

وهناك عدة أمور يمكن أن تقوي العبد على محاسبة نفسه والسيطرة عليها منها قطع العلائق التي تشغله في الانهماك في الشهوات، وتفريغ النفس والقلب من الانشغال بأمور الدنيا ومكاسبها، كذلك الخوف من الله تعالى من أن يسأله فيما فرطّ من أعمال وأفعال في الدنيا، ذلك الخوف الذي يؤدي به الى الالتزام ومحاسبة النفس عند الخطيئة(٣٣).

يقول أبو يزيد البسطامي: "**كنت اثنتي عشر سنة حداد نفسي، وخمسين سنة كنت مرآة قلبي، وسنة أنظر فيما بينهما، فإذا في وسطي زنار**[٣٤]**ظاهر فعملت في قطعه اثنتي عشر سنة، ثم نظرت فإذا في باطني زنار فعملت في قطعه خمسين سنة انظر كيف اقطعه، فكشف لي فنظرت إلى الخلق فرأيتهم موتى**"[٣٥].

فالبسطامي يسعى إلى قطع صلته بالعالم، وإن هذا العمل إنما هو مجاهدة لنفسه بقطعها عن كل شيء ويصف رغبته في التخلص التام من الشواغل التي تربطه بالخلق وذلك في قوله: (فكشف لي فنظرت الى الخلق فرأيتهم موتى) حيث إن رؤيته للناس موتى بعد أن كشف له أراد به التخلص من هؤلاء الخلق[٣٦].

يقول الحسن البصري: "**ما عبد الله بشيء افضل من طول الحزن والخوف**"[٣٧]. **وكان يقول:** "**ان هذا الموت فضح الدنيا فلم يترك لاحد بها فرحة**"[٣٨]. فذكر الموت وما بعده من حساب وعقاب كفيل بأن يدخل الخوف والرعب في القلب، ويبدو أن الحسن البصري كان شديد الخوف وكان خوفه وحزنه لمعرفته بالله تعالى خوف هيبة وتعظيم له سبحانه وتعالى كذلك من اقواله: "**ابن آدام إن اللبيب لا يمنعه حد الله من جد النهار ولا جد النهار من جد الليل، قد لازم الخوف قلبه إلى أن يرحمه ربّه**"[٣٩]. فقد كان أوضح مثال للمتصوف الزاهد الذي غلب عليه طابع الحزن والخوف المقلق الذي يصل الى المبالغة بالشعور بالخطيئة[٤٠].

يُقال إنه: "**ما ضحك اربعين سنة وكنت إذا رأيته قاعداً كان أسير قدِّم ليضرب عنقه، وإذا تكلّم كأنه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها وإذا سكت كان النار تسعر بين عينيه**"[٤١].

وله الكثير من النصوص التي تصف حزنه وخوفه من الباري عز وجلّ نورد منها هذا النص الذي يصف فيه عباد الله المحزونة قلوبهم يقول: "**إن لله عبادا قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة حوائجهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أياماً قصاراً يعقب راحة طويلة خالطهم من حبهم لربهم،**

ومن ذكر الآخرة أمر عظيم"[٤٢]. فهو يصف قلوب العباد بأنها محزونة خائفة وحوائجهم خفيفة وانفسهم عفيفة، هؤلاء العباد صبروا على ما في الدنيا وأيامها التي وصفها بأنها قصيرة ليفوزوا بالراحة الطويلة التي تأتي من ترك الدنيا بما فيها للفوز بالجنة.

وفي المعنى نفسه يصف الجيلاني قلوب هؤلاء العباد في قوله: "**قلوبهم حزينة منكسرة بين يدي الحقّ خائفين وجلين كلما كشف لهم قناع جلاله وعظمته ازداد خوفهم تكاد قلوبهم تنقطع وأوصالهم تنفصل، حتى تفتح أبواب الرحمة والجمال فيسكن ما بهم**"[٤٣]. فعلى هذا النحو يصف الجيلاني قلوب الصوفية الحزينة المنكسرة فهم خائفون وجلون وهذا الخوف ناشئ من معرفة هيبة وعظمة الباري، و لا تطمئن قلوبهم حتى تفتح لهم أبواب الرحمة فيسكن ما بهم.

كذلك يصفهم ذو النون المصري في قوله: "**فلو رأيتهم لرأيت قوماً قد ذبحهم الليل بسكاكين السهر وفصل الأعضاء منهم بخناجر التعب، قمص الطول السرى، شعث لفقد الكرا، قد وصلوا الكلال بالكلال وتأهبوا للنقلة والارتحال**"[٤٤]. فهو يصف ما كان عليه هؤلاء من خوف وذلّ ومسكنة وجوع، فهم احتملوا ما احتملوا من المعاناة والسهر راجين في كل ذلك ما يسعدهم في دار القرار.

وايضاً إن من أعلى المخاوف هو خوف سلب الإيمان الذي أودعه الله في قلب المؤمن يظهره ويبديه ويعيده متى ما يشاء، حيث إن هؤلاء الخائفين لهم طرق وروح من قبل الخوف المقلق والوجلّ المحرق والإشفاقّ المزعج يسيطر عليهم الخوف بين متأوهٍ وشاكٍ مما يجعلهم يلوذون بهدى الرحمن عسى أن يقرّبهم الله ويشفع لهم[٤٥].

فإن كل مؤمن بالله سبحانه وتعالى خائف منه ممتثل لأوامره ناهٍ عما نهى عنه أن له هدى ورحمة ورضواناً، والله تعالى اهلٌ أن يُطاع ويرجى، قال تعالى: "**هُدَى وَرَحمَة لّلذِينَ هُم لِرَبهم يُرهِبُون**"[٤٦].

يقول الفضيل بن عياض: "**من خاف الله دلّه الخوف على كل خير**"[٤٧]. ومعنى ذلك ان اصلاح النفس والسير في طريق الخير يسبقه وجود الخوف في القلب، يحكى عن الفضيل بن عياض انه

يقول: "**رأيت ابني يبكي فقلت: ما يبكيك يا بني؟ فقال: اخاف ان لا تجمعنا القيامة، وقال: أشرقت ليلة على ابني وهو في صحن الدار فسمعته يقول: النار...! متى الخلاص الآخرة، ثم قال الفضيل: لم يزل (أي ابني) منكسر القلب حزيناً ثم قال: كان يساعدني على الحزن والبكاء يا ثمرة قلبي شكر الله لك ما قد علمه فيك**"(٤٨).

فالحكاية تجسد مدى خوف الصوفية من نار جهنم، فذلك الحزن والبكاء يملآن القلب فيصبح منكسراً حزيناً، حيث إن خوف نار جهنم كان هاجساً مرعباً للصوفية، وهو الرادع الذي سرعان ما يتذكره المرء ليكفّ عن المعاصي والآثام.

والخوف بهذا المعنى هو طريق العبد إلى الله به يخاف العبد أن يفعل ما يغضب الله تعالى، فيحرق في نفسه الشهوات ويهدم في نفسه حصون الاستعلاء والعدوان، وإن خوف الصوفية هو حركة دائمة في القلب يجنبهم من الانصياع إلى الأهواء، وكثيرا ما نلاحظ في أقوالهم ونصوصهم ذكر نار جهنم وأهوال يوم القيامة والعذاب والعقاب، وكل ذلك نتيجة شعورهم بالقلق من المصير المجهول وما وراءه من حساب وعقاب(٤٩).

يقول الجيلاني: "**تنبهوا من غفلتكم ما أنتم إلا في غفلة عظيمة كأنكم قد حوسبتم وعبدتم الصراط ورأيتم منازلكم في الجنة ما هذا الاغترار العظيم كل واحد منكم قد عصى الله عز وجلّ معاصي كثيرة وهو لا يتفكر فيها ولا يتوب منها، استيقظوا يا غفل تنبهوا يا نيام، تعرضوا لرحمة الله عز وجلّ ومن اشتدت معاصيه وزلاته واصرّ عليها ولم يتب ولم يندم، فقد جاء يريد الكفر ان لم يتدارك الأمر، يا دنيا بلا آخرة يا خلقاً بلا خالق**"(٥٠).

فهو يدعو الى الابتعاد عما سوى الله لأن كل شيء مقدر ومقسوم، فلا يخاف من شيء سوى الله تعالى خوفاً من التقصير في حقّه وأداء واجباته أما ما دون ذلك فلا يعنيه ولا يفيده بشيء.

وإن سلوك طريق الخوف وحمل النفس للخير لا يتأتى الا بذكر ثلاث أصول وحفظها على الدوام وهي: ذكر أقوال الله تعالى في الترهيب والترغيب، وذكر أفعاله في الأخذ والعفو، وذكر جزائه للعباد من الثواب والعقاب فمن آياته عز وجلّ: "**مَن يَعْمَل سُوءاً يُجزَ بِه ولَا يَجِد لَهُ مِن دُون الله وَلِيا ولَا نَصِيرَا**"(٥١).

وهكذا يمكننا القول: بأن الصوفية قوم انشغلوا بذكر الله خوفاً من عذابه وقلقاً من عقابه وعرفوا بالزهد في الدنيا والقناعة والرضا بالقليل وقلة النوم والوحشة من الخلق والنوم على الغلبة والجلوس في المساجد(٥٢). فكانت نتيجة هذه المجاهدات تعمّق الحب الإلهي المقترن بالخوف من الله والتوكل عليه وسرعان ما يزداد هذا الخوف ليتحول إلى قلق يهزّ كيان الصوفي فيجعله مضطربا.

فغالبا ما يكون القلق مصحوبا بسلوكيات وأفعال تعكس حالة من التوتر وعدم الارتياح، فيؤدي إلى شعور غير سار كالخوف من الموت أو من الحساب والعقاب فتختلط لديه مشاعره وأحاسيسه بمشاعر الخوف والقلق، وهذا ما لاحظناه في الكتابات الصوفية التي سبق ذكرها.

الهوامـش

١- يُنظر: معجم اصطلاحات الصوفية، عبد الرزاق الكاشاني، ٢٠٩.

٢- يُنظر: إحياء علوم الدين، الغزالي، ١٥٠٤.

٣- المصدر نفسه، ١٥٠٣.

٤- جواهر التصوف،٥٦ .

٥- سورة آل عمران، اية/١٧٥.

٦- حلية الأولياء، الأصفهاني، ٣٦٠/٩.

٧- قوت القلوب، أبو طالب المكي، ٥٩٥/١.

٨- مفهوم التصوف، عبدة غالب أحمد عيسى، ٦٩.

٩- يُنظر: أعلام ومشاهير التصوف، عبد المنعم الجعفري، ١١،١٢.

١٠- المصدر نفسه، ٢٦.

١١- يُنظر: قوت القلوب: أبو طالب المكي، ٦٠٦ .

١٢- يُنظر، التصوف الإسلامي، دكتور، فيصل بدير عون، ١٢٥.

١٣- يُنظر: التصوف الإسلامي، فيصل بدير عون، ١٣٠.

١٤- الرسالة القشيرية، القشيري، ٣٣.

١٥- التوهم، المحاسبي، ٥٤.

١٦- يُنظر: قوت القلوب، أبو طالب المكي، ٦٥٧.

١٧- اللمع، الطوسي، ٧١.

١٨- يُنظر، المعرفة عند الصوفية مدخل نفسي، ، ٤٦.

١٩- يُنظر: منهاج العابدين، الغزالي، ٨٩.

٢٠- منهاج العابدين، الغزالي، ١٧٩.

٢١- الرسالة القشيرية، القشيري، ١٢٤.

٢٢- سورة الحج، آية/٣٥.

٢٣- يُنظر: منهاج العابدين، الغزالي، ٦١٨.

٢٤- منهاج العابدين، الغزالي، ٦١٨ .

٢٥- الرسالة القشيرية، القشيري، ١٣١.

٢٦- المصدر نفسه، ١٤١.

٢٧- المصدر نفسه، ١٤١.

٢٨- سورة البقرة، اية/١٧٧.

٢٩- يُنظر: التصوف أبحاث ودراسات، مجموعة مؤلفين، تحرير وإشراف، عامر عبد زيد الوائلي، ١٢٥ .

٣٠- الرعاية، المحاسبي، ٤٠.

٣١- سورة البقرة، اية/٢٣٤.

٣٢- يُنظر: المكاسب، المحاسبي، ٢٠٠.

٣٣- يُنظر: التصوف أبحاث ودراسات، مجموعة مؤلفين، ٢٤٠.

٣٤- الزنار: حزام للنصارى يشد على وسط الجسد، لسان العرب، ابن منظور، مادة ز. ن. ر.

٣٥- الرسالة القشيرية، القشيري، ٤٨.

٣٦- يُنظر: التصوف الثورة، الدكتور ابو العلا عفيفي، ١٣٣.

٣٧- قوت القلوب، أأبو طالب المكي، ٦٥٣.

٣٨- آداب الحسن البصري، جمال الدين ابي الفرج، ٥٦.

٣٩- المصدر نفسه، ٥٦.

٤٠- يُنظر: قوت القلوب، ابو طالب، ٦٢٤.

٤١- قوت القلوب، أبو طالب المكي، ٦٢٤.

٤٢- الادب في التراث الصوفي، محمد عبد المنعم خفاجي، ٩١.

٤٣- الفتح الرباني، عبد القادر الجيلاني، ٤٢.

٤٤- حلية الأولياء، الأصفهاني، ٣٤٦.

٤٥- يُنظر: قوت القلوب، أبو طالب المكي، ١٤٧ .

٤٦- سورة الأعراف، اية/١٥٤.

٤٧- إحياء علوم الدين، الغزالي، ١٥١٠.

٤٨- شخصيات استوقفتني، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ٣٧.

٤٩- يُنظر: تعريف عام بدين الإسلام، علي الطنطاوي، ٧٨.

٥٠- الفتح الرباني، عبد القادر الجيلاني، ٩١.

٥١- سورة النساء، اية/١٢٣.

٥٢- يُنظر: مقدمة في التصوف، عبد الرحمن السلمي، ٧٢.

المصادر والمراجـع

١- القران الكريم .

١- إحياء علوم الدين ، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، الطبعة الأولى ، دار ابن حزم – بيروت ، ٢٠٠٥ م .

٢- آداب الحسن البصري وزهده ومواعظه، جمال الدين ابي الفرج ابن الجوزي، تحقيق سليمان الحرش، دار النوادر، الطبعة الثالثة، لبنان، ٢٠٠٨.

٣- الادب في التراث الصوفي، محمد عبد المنعم خفاجي، دار غريب، القاهرة، د. ت.

٤- اعلام ومشاهير الصوفية، عبد المنعم الجعفري، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، الطبعة الاولى، ١٩٩٢.

٥- التصوف ابحاث ودراسات، مجموعة مؤلفين، تحرير واشراف أ. د. عامر عبد العزيز الوائلي، الطبعة الاولى، دار الامان، الرباط، ٢٠١٥.

٦- التصوف الإسلامي الطريق والرجال ، د. فيصل بديرعون، د.ط ، مطبعة دار الثقافة للطباعة والنشر – القاهرة – مصر ، ١٩٨٣ م .

٧- التصوف الثورة الروحية في الاسلام، الدكتور ابو العلا عفيفي، دار المعارف، مصر، الطبعة الاولى، ١٩٦٣.

٨- تعريف عام بدين الاسلام، علي الطنطاوي، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة ـ السعودية.

٩- التوهم، الحارث بن اسد المحاسبي ت٢٤٣هـ، تحقيق المستعصم بالله ابو هريرة، مصطفى بن علي بن جعفر الطيار.

١٠- جواهر التصوف ، يحيى بن معاذ الرازي ، جمع وتبويب وشرح وتعليق : سعيد هارون عاشور ، الطبعة الأولى ، مكتبة الآداب – القاهرة – مصر ، ٢٠٠٢م .

١١- حلية الاولياء وطبقات الاصفياء، ت٤٣٠هـ، الاصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الاولى، ١٩٨٨.

١٢- الرسالة القشيرية، القشيري، اعداد وتحقيق معروف مصطفى زريف، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الاولى، ٢٠٠١.

١٣- شخصيات استوقفتني، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، دمشق، سوريا، ١٩٩٩.

١٤- الفتح الرباني والفيض الرحماني ، عبد القادر الجيلاني ، د.ط ، دار الريان للتراث – مصر ، د.ت .

١٥- الفتح الرباني والفيض الرحماني ، عبد القادر الجيلاني ، د.ط ، دار الريان للتراث – مصر ، د.ت .

١٦- قوت القلوب، ابو طالب المكي، ت٣٦٨، دار العلوم، القاهرة، د. ط،٢٠٠١.

١٧- اللُمع ، أبو نصر السراج الطوسي ، حققه وقدم له وخرج أحاديثه د. عبد الحليم محمود ، و طه عبد الباقي سرور ، د.ط ، دار الكتب الحديثة – مصر، ومكتبة المثنى – بغداد ، ١٩٦٠م .

١٨- معجم اصطلاحات الصوفية – القسم الأول والثاني- ، عبد الرزاق الكاشاني ، تحقيق وتقديم وتعليق د. عبد العال شاهين ، الطبعة الأولى ، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع – القاهرة ، ١٩٩٢م .

١٩- المعرفة عند الصوفية، مدخل نفسي، الاستاذ الدكتور محمود قمير، كلية التربية، جامعة قطر، د. ت.

٢٠- مفهوم التصوف ، عبده غالب أحمد عيسى ، الطبعة الأولى ، دار الجيل – بيروت – لبنان ، ١٩٩٢م .

٢١- المقدمة في التصوف وحقيقته، عبد الرحمن السلمي، تحقيق د. حسين امين، دار القادسية، بغداد، ١٩٨٤م.

٢٢- المكاسب، المحاسبي، مؤسسة الكتب الثقافية، د. ط، ١٩٨٧.

٢٣- منهاج العابدين الى جنة رب العالمين، تأليف ابو حامد الغزالي، تحقيق، الدكتور محمود مصطفى جلاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الاولى، ١٩٨٩.